العرب
الثلاثاء 2021/10/26
السنة 44 العدد 12221

الجزائر تحتفي بعبدالحميد بن هدوقة رائد روايتها العربية

كاتب دوّن سردية أخرى للتاريخ المغاربي وفتح مرآة لطموحات البسطاء

تاريخ الجزائر محفوظ في روايات وقصص بن هدوقة

شكل الكاتب الجزائري عبدالحميد بن هدوقة طفرة في السرد الجزائري، وتعتبر أعماله تأسيسية في الكتابة باللغة العربية لعقود كاملة حيث احتفى به القارئ ولا يزال يحتفي به سواء في الجزائر أو في المغرب العربي ككل؛ إذ أن للراحل مكانة أدبية كبيرة خاصة في أعماله التي تقدم سرديات تاريخية هامة عن الواقع الجزائري في النصف الثاني من القرن العشرين، وهو ما جعله من أبرز الأدباء الذين يدرّسون المناهج التعليمية في البلدان المغاربية.

الجزائر – احتفلت الجزائر هذا العام بالذكرى الخامسة والعشرين لرحيل مؤسس الرواية الجزائرية باللغة العربية عبدالحميد بن هدوقة (1925 – 1996)، الذي فتح بروايته الشهيرة "ريح الجنوب" الطريق أمام المبدعين لتقديم أعمال روائية متميزة بالعربية.

وتزامنا مع هذه الذكرى احتفت الدورة السابعة من جائزة "كتارا" للرواية العربية بالأديب الجزائري المعطاء، ليكون شخصية العام في إطار التقليد السنوي للجائزة منذ 2016 والذي يحتفي سنويا بشخصية أدبية عربية "تركت بصمة واضحة في مسيرة الأدب العربي".

احتفاء بالكاتب

كما عرفت بداية هذه السنة تنظيم وزارة الثقافة والفنون لندوة وطنية حول أعمال الروائي عبدالحميد بن هدوقة بعنوان "الرواية الجزائرية من التأسيس إلى التكريس"، احتضنتها المكتبة الوطنية بالحامة في الجزائر العاصمة، احتفاء بهذا الكاتب الذي شكلت أعماله "طفرة في السرد الجزائري" وتعتبر كتاباته "أعمالا تأسيسية" في الكتابة باللغة العربية.

كما احتضنت المكتبة الرئيسية العمومية للمطالعة بمدينة الشلف الجزائرية على مدار أسبوع معرضا لأهم مؤلفات بن هدوقة ضمن فعاليات الندوة الوطنية التي نظمتها الوزارة الوصية عبر جميع الهياكل والمؤسسات الثقافية.

ويندرج المعرض ضمن فعاليات الندوة الوطنية للروائي عبدالحميد بن هدوقة تحت شعار "الرواية الجزائرية.. من التأسيس إلى التكريس"، وتضمن عرضا على مواقع التواصل الاجتماعي لأهم آثار الكاتب والمؤلفات التي تتحدث عنه.

كما نظمت المكتبة مسابقة فكرية للأطفال خصصتها لأحسن سيرة ذاتية يقدمها المشارك حول شخصية بن هدوقة، بالإضافة إلى جلسات قراءة لنصوص من مؤلفاته التي تختزل ذاكرة وطن بأكمله وتمثل نافذة على واقع الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي وعلى حقبة هامة من تاريخ البلاد منتصف القرن العشرين.

قضايا الوطن

ترك الراحل أعمالا أدبية ثرية ومتنوعة، وكان قد بدأ مشواره بالكتابة في الصحف التونسية منذ عام 1951، هذا البلد الذي درس فيه وعاد للإقامة به تحت ضغط الاستعمار وملاحقته له بسبب نشاطه السياسي ضمن حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية. وفي عام 1952 نشر بن هدوقة أول نص شعري له بعنوان "حامل الأزهر"، لكن رغم بدايته الشعرية اشتهر أكثر بروايته وإبداعاته الأخرى.

ويزخر المشوار الأدبي لابن هدوقة بإنجازات هامة وذلك منذ صدور روايته الأولى "ريح الجنوب" سنة 1971 التي اقتبسها المخرج الراحل سليم رياض إلى فيلم تلفزيوني لقي إقبالا جماهيريا كبيرا، تبعتها أعمال أخرى من بينها "نهاية الأمس" (1975) و"ابن الصبح" (1980) و"الجازية والدراويش" (1983) و"غدا يوم جديد" (1997).

كما كتب بن هدوقة القصة القصيرة وعددا من النصوص المسرحية، وترجمت أعماله إلى عدة لغات. وللروائي كذلك تجربة مهمة في مجال الترجمة حيث قام بترجمة العديد من الأعمال على غرار دراسة للمحامي الفرنسي جاك فرجيس بعنوان "دفاع عن الفدائيين" سنة 1975.

إلى جانب الإبداع الأدبي عمل بن هدوقة في عدة مجالات ثقافية وإعلامية بعد عودته إلى الجزائر في 1962 حيث التحق بالإذاعة والتلفزيون في قسم الإخراج (1962 – 1963) ثم أصبح منسقا عاما للمصالح الفنية ومسيرا للبرامج ومديرا للإذاعتين العربية والأمازيغية من 1966 إلى 1970. وفي أواخر الثمانينات عين بن هدوقة مديرا للمؤسسة الوطنية للكتاب ثم أمينا عاما مساعدا لاتحاد الكتاب الجزائريين ورئيسا للمجلس الأعلى للثقافة (1990 – 1993).

ولد الراحل في التاسع من يناير 1925 في قرية الحمراء ببرج بوعريريج، وبدأ تعليمه في كُتاب والده حيث درس مبادئ اللغة العربية وحفظ أجزاء من القرآن الكريم وواصل الدراسة في معهد الكتانية بقسنطينة قبل الالتحاق بجامع الزيتونة في تونس حيث نال شهادة التحصيل، إلى جانب دراسته في معهد الفنون الدرامية الذي تحصل منه على شهادة في التمثيل العربي.

توجه بن هدوقة نحو الكتابة الروائية والقصصية لأنه وجدها ملائمة للتعبير عن قضايا وإرهاصات كانت بداخله، فكتب عن الواقع الجزائري في تجلياته المختلفة انطلاقا من البيئة الريفية التي تربى فيها وعانى من اضطهاد المستعمر، كما تطرق في كتاباته إلى التحديات التي واجهتها الجزائر غداة الاستقلال، من خلال قضايا إنسانية تمس مختلف الشرائح التي تناولها كشخصيات في قصصه القصيرة.

واهتم الأديب في أعماله الروائية بالقضايا الوطنية والاجتماعية، وجعل محورها يدور حول المرأة والأرض، مبرزا معاناة الجزائريين من الاستعمار، وكان أبطال هذه الأعمال متمردين متشبعين بأفكار جديدة رافضة للأوضاع القائمة ومصرين على الإصلاح والتغيير. ووظف بن هدوقة في أعماله الروائية اللاحقة التراث والرمز كما في روايته "الجازية والدراويش"، وهي قصة رمزية تعكس أبعاد التحولات الاجتماعية التي تعيشها إحدى القرى الجبلية، وجعل أحداثها تدور حول فتاة غامضة مثقلة بالدلالات.

كتابة التاريخ

كان بن هدوقة يكتب عن التاريخ "كتابة نقدية" وليس مسجلا للأحداث التاريخية بل ناقد لها؛ حيث كان يوظف الأحداث بدلالات "زمانية – كرونيكية" وذلك بما يخدم مسار الحدث (السرد) أو بوصفها ذات دلالات رمزية كالتواريخ المتعلقة بالثورة التحريرية والمحطات والمفاصل الكبرى في الجزائر.

ولم يكن الكاتب مهتما بترسيخ النهايات الجميلة في رواياته التي تسعد التاريخ وترضيه ولا مهتما بالنهايات الدرامية التي تدين التاريخ وتتهمه؛ بل سعى لأن يكون التاريخ خادما للحاضر من خلال إبقائه التساؤل مفتوحا لكي يشاركه الآخرون في بناء المستقبل، مؤمنا في نصوصه بمبدأ التعددية.

وطرح الكاتب المسألة التاريخية أدبيا على عكس مواطنه مالك بن نبي الذي تناولها من منظور فكري، فكانت أعماله ضمن ما يمكن وسمه بسردية التاريخ والمجتمع والثقافة، ومن ثم فإن فهم الروائي للتاريخ كان عبر فهمه للمكان على غرار الريف والمدينة.

وقد حاول بن هدوقة تفسير تاريخ الجزائر من خلال ثلاث آليات وهي الإنسان والمكان والزمان، حتى يتمكن من فهم التحول التاريخي الذي جسده في سرد الحدث الأدبي كما تجلى ذلك في روايته "ريح الجنوب" التي تعتبر بمثابة تأسيس لمفهوم "ذاكرة المكان".

وترجمت أعمال بن هدوقة التي اتسمت بالتفوق من حيث المبنى والنوع الكتابي إلى عدة لغات، إذ عكست جلها تفاصيل حياة المجتمع الجزائري، مقدمة سردية أخرى له في النصف الثاني من القرن العشرين.

وقد أحب المترجم الفرنسي مارسيل بوا روايات بن هدوقة، وأحب أيضا شخصية بن هدوقة المثقف والأديب والإنسان، لذلك ترجم جميع رواياته إلى الفرنسية، فإليه يعود الفضل الثقافي في توصيل اسم الروائي عبدالحميد بن هدوقة إلى شريحة واسعة من القراء بالفرنسية في الجزائر، ومن خلال ترجماته عرف الجزائريون في اللغة الفرنسية روايات بن هدوقة كـ"ريح الجنوب" و"نهاية الأمس" و"بان الصبح" و"الجازية والدراويش" و"غدا يوم جديد". كما أن فيلم "ريح الجنوب" الذي أخرجه سليم رياض عام 1975 والمقتبس عن رواية "ريح الجنوب" لابن هدوقة اعتُمدت فيه الرواية مترجمة إلى الفرنسية أكثر مما اعتُمد النص بالعربية، وذلك نظرا إلى جهل المخرج باللغة العربية التي بها كتب النص الأصلي.

عبدالله الغذامي: الفلسفة لن تموت ولكنها تحتاج إلى أن تتطور

الرياض – ناقش لقاء الشهر الثقافي بمكتبة الملك عبدالعزيز العامة، كتاب "مآلات الفلسفة.. من الفلسفة إلى النظرية" للناقد السعودي عبدالله الغذامي، الذي يقف على أهمية الفلسفة اليوم ورهاناتها.

وأكد الغذامي خلال اللقاء الذي أقيم مؤخرا في قاعة الخدمات والاطلاع بفرع المكتبة بطريق خريص وأداره الأكاديمي عبدالمحسن العقيلي، أن نسبة العلماء الذين يرون أن الإرادة الحرة هي حتمية بيولوجية في تصاعد كبير، متحدثاً عن فلسفة العقل الذي شغل الفلاسفة الأوائل بدءاً من أفلاطون وفلاسفة الإغريق.

وينطلق الغذامي في الكتاب من فكرة تحول الفلسفة إلى نظرية؛ ويلخص ذلك بالقول، كما جاء على الغلاف الخلفي للكتاب، "رأى بعض الفيزيائيين الكبار دانييل دانيت منكبًا على كتب الفلسفة، فتعجبوا من فيلسوف معاصر لم يزل يعتمد على الفلاسفة القدامى، ولم يجد دانيت من دفاع غير أن قال: إننا نقرأ للكبار كي نتجنب أخطاءهم، ولو لم نفعل لكررنا الأخطاء ذاتها. هذه هي أطروحة هذا الكتاب عن حال الفلسفة ومآلاتها التي تقتضي صيغة عصرية تؤسس لحيوية جديدة تقيم للفلسفة قيمة معرفية تتفق مع روح العصر".

وتناقش فصول الكتاب رؤية جديدة في استمرارية الفلسفة التي لن تموت -كما يرى الغذامي- ولكنها تحتاج إلى التطوير.

يواصل الغذامي الغوص في الفلسفة والمنطق على غرار كتبه الصادرة خلال فترة جائحة كورونا وهذه المرة عبر كتابه الجديد "مآلات الفلسفة.. من الفلسفة إلى النظرية" الذي قسمه إلى خمسة فصول حملت عناوين: الفلسفة اليوم، الفلسفة والأسئلة الكبرى، المفاهيم الكبرى، الفلسفة والحكمة، مآلات الفلسفة.. النظرية أو موت الفلسفة.

بداية يناقش المؤلف "حال الفلسفة اليوم" إذ يبشر بأن الفلسفة لها موطئ قدم في الحاضر وينتصر لها ليس فقط من خصومها كستيفن هوكينج الذي أقر موتها، بل حتى من بعض المحسوبين عليها خاصة باشلار ورورتي، وإن اختلف دورها وتعريفها وحجم تأثيرها، فالفلسفة برأيه لم تعد أم العلوم بل صارت علما معينا للعلوم يردفها بالبعد الإنساني ويركز على التفكير الناقد، وهو ما يتطلب تبسيط الفلسفة وتوضيحها للفرد والمجتمع، بل وينبغي أن تخرج الفلسفة من جلباب دولة هيغل العميقة أي عصرنة الفلسفة.

ويركز الغذامي على مسألة "الفلسفة والأسئلة الكبرى" كاشفا من خلالها علة مزمنة عند بعض الفلاسفة وهي الهروب من نقاش الأسئلة الكبرى أو تجاوز القضايا الفكرية الشائكة والتركيز على تفاصيلها أو بعض تفاصيلها، خاصة الأسئلة الوجودية، وهي ممارسة مماثلة لعرابي العلوم البحتة المعاصرين.

وفي الفصل الثالث بعنوان"المفاهيم الكبرى" ينتقل الغذامي إلى محور علاقة الفلسفة بالمفاهيم الكبرى كالمواطنة العالمية، ويرى أن الفلسفة عاجزة عن فرض قيم المواطنة العالمية خاصة التعددية والعدالة والمساواة والديمقراطية والحرية في ظل تغول العولمة السياسية والاقتصادية والثقافية والليبرالية الجديدة والرأسمالية والشعبوية والعنصرية العرقية والجندرية والدكتاتورية.

وتحت عنوان "الفلسفة و الحكمة" يستحضر الناقد سيرة سقراط والغزالي ويعري الفلاسفة فهم ليسوا حكماء بل أنصاف أموات لن يصلوا إلى الحكمة إلا بالانعتاق من حاجات الجسد وتلبية حاجات الروح من خلال التأمل الصوفي، وهو أمر مستحيل في الدنيا متحقق في الآخرة، ولأن العقل محدود فإن سقراط تجول بين الفلاسفة والشعراء والساسة وأهل المهن والغزالي حاور الفلاسفة وعلماء الكلام والباطنية والظاهرية والمتصوفة ومارس النقد التحليلي لمقولاتهم وآرائهم وحذر من خطورة التقليد الأعمى.

وينتهي الغذامي في الفصل الأخير من كتابه "مآلات الفلسفة.. النظرية أو موت الفلسفة" إلى أن الفلسفة لن تموت ولكنها تحتاج إلى أن تتطور لتواكب العصر وتكرس قيم الحرية والعدالة والمساواة والتعددية الثقافية، وهي أركان التفاوضية الثقافية على حد وصف الغذامي، ومن أبرز ملامحها التفكير الناقد الذي يصل في أعلى مراتبه إلى نقد الخطاب الذاتي.

> حال الفلسفة ومآلاتها يقتضيان صيغة عصرية تؤسس لحيوية جديدة تقيم للفلسفة قيمة معرفية تتفق مع روح العصر

ويحسب للكاتب حسن اختيار الأمثلة والانتقال المنطقي وحسن التنظيم والبناء المحكم للكتاب والموضوعية والتجرد والوضوح في المعاني والبساطة في العبارات في موضوع معقد عادة حتى بالنسبة إلى النخبة.

وللناقد الدكتور عبدالله الغذامي أستاذ النقد والنظرية في كلية الآداب، قسم اللغة العربية، بجامعة الملك سعود في الرياض، مؤلفات متعددة تسهم في قراءة الأنساق الثقافية العربية؛ حيث يقدم نظرة مختلفة إلى العالم، وإلى الشرق بشكل خاص، ترى الحداثة مرتبطة بالمكان وشروطه، وليست ضرورة حتمية، وهو ما يؤكده في كتابه الجديد الذي يدعو إلى تجاوز الانسياق الأعمى خلف الفلاسفة دون تفكير ينطلق من الواقع المحيط والأخذ بعين الاعتبار التغيرات الزمنية والظروف.

ومع كتابه هذا لا يبدو الغذامي مثقفا ناقدا سعوديا فقط، إذا ما نظرنا إلى حجم واتساع الهمّ الفكري والنقدي الذي يتصدى له، ولذلك ينتظر من منتقديه ألا يضيقوا على أطروحاته ويقزموها لتكون على قياس السوق الثقافية المحلية، والربط الذي يجريه على الدوام مع النطاقات الأوسع.

ويذكر أن البرنامج الثقافي لمكتبة الملك عبدالعزيز العامة يأتي ليستشرف أحدث الرؤى الثقافية والمعرفية التي تعبر عن قيم اللحظة الثقافية الراهنة، كما تسعى المكتبة لقراءة الواقع الثقافي بمختلف أسئلته وطروحاته وبشموليته المحلية والعربية والعالمية التي تعبر عن تعددية الثقافة وتكامل العقل الإنساني فكراً وبحثاً ومعرفة.

أسئلة راهنة في مواجهة الفلسفة